ها هي الحقيقة كاملة بمنطقها، ولكم أن تختاروا إما نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى أو نجاة من النار، وقد اختار الحر الرياحي، قائد الكتيبة الأولى، الجنة وانضم إلى الحسين عليه السلام قائلا: "إني والله أخير نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قطعت وحرقت».

ثم ضرب فرسه فلحق بحسين عليه السلام فقال له: «جعلني الله فداك يا ابن رسول الله أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجعجعت بك في هذا المكان، والله الذي لا إله إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضت عليهم أبدا ولا يبلغوا منك هذه المنزلة، فقلت في نفسي لا أبالي أن أطيع القوم في بعض أمرهم ولا يرون أني خرجت من طاعتهم، وأما هم فسيقبلون من حسين هذه الخصال التي يعرضها عليهم، ووالله لو ظننت أنهم لا يقبلونها منك ما ركبتها منك وإني قد جئتك تائبا مما كان مني إلى ربي ومواسيا لك بنفسي حتى أموت بين يديك أفترى ذلك لي توبة؟. قال(عليه السلام): «نعم، يتوب الله عليك ويغفر لك، ما اسمك»؟. قال: أنا الحر بن يزيد. قال(عليه السلام): «أنت الحر كما سمتك أمك، أنت الحر إن شاء الله في الدنيا والآخرة»(١).

إن الحر هو أحد النماذج البشرية، رجل يعيش في وسط الناس، له بقية ضمير، لا يرى كل معايب القوم، يعتقد أنه بإمكانه الحافظ على بعض القيم الصحيحة، ولكن القوم لا يريدون من يحافظ على المبادئ، وقد تسابق الأشراف والسادة في مناصرتهم وسنرى بعد ذلك كيف أن ابن سعد رمى الحسين عليه السلام بأول سهم وقال: "اشهدوا أني أول من رمى"(٢) إنه التسابق من أجل الذل.

ثم تقدم الحر، رحمه الله، مخاطبا القوم: "لأمكم الهبل والعبر، إذ دعوتموه حتى إذا أتاكم أسلمتموه وزعمتم أنكم قاتلوا أنفسكم دونه ثم عدوتم عليه لتقتلوه، أمسكتم بنفسه وأخذتم بكظمه وأحطتم به من كل جانب فمنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع ضرا، وخلأتموه ونساءه وصبيانه وأصحابه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني وتمرغ خنازير السواد وكلابه وها هم قد صرعهم العطش، بئسما خلفتم محمدا في ذريت هلا أسقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه من يومكم هذا في ساعتكم هذه". فحملت عليه رجالة لهم ترميه بالنبل"(٣).

فها هو الحر رضوان الله عليه يخاطب القوم محاولا إيقاظ الضمائر التي ماتت ويسألهم عن مسوغات ذلك المسلك الغريب لبني أمية في مواجهة الإمام الحسين(عليه السلام).

حصار لرجل في مكانة الحسين(عليه السلام) ومنزلته، لمجرد اتخاذ موقف معارض لبيعة يزيد، مع ملاحظة أن مسلسل السلوك الأموي كان غير مسبوق في تاريخ العرب والمسلمين، فلم يكن للإسلام ولا للعرب دولة قبل ظهور الإسلام.

(١) تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٢٢. (٢) تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٢٦.
(٣) تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٢٦.

وحينما جاء محمد بن عبد الله عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم السلام وبعد ثلاثة وعشرين عاما من المقاومة المشركة بقيادة بني أمية وكهفهم أبي سفيان، صار للمسلمين دولة عاصمتها المدينة وإحدى ولاياتها دمشق، ولولا ذلك لما كان لأحد من بني أمية ذكر، وذلك ما قاله الحسين(عليه السلام) لمعاوية: «ولولا الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم لكان أفضل شرفك رحلة الشتاء والصيف»(١)، والعجيب أن بني أمية صار لهم نصيب في هذه الدولة التي حاربوها منذ الميلاد. ثم تدهورت الأمور ليصبحوا حكاما لدولة لم يوفروا جهدا في حرب مؤسسها رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وهذا من أشد العجب، وصاروا يؤسسون مسلكا وسننا لهم فهم أول من قتل الناس عقابا لهم على إبداء الرأي (حجر بن عدي) وأصحابه وهذه سابقة تاريخية لم يعرفها عرب الجاهلية، وهم أول من طاف برؤوس المعارضين السياسيين في نواحي البلدان (عمرو بن الحمق الخزاعي) وهذه سابقة تاريخية أخرى.

ثم ها هم يعاقبون الحسين(عليه السلام)، سبط النبي(صلى الله عليه وآله)، عقابا مخترعا يؤسسون به لكل فرعون يأتي من بعدهم، فهم يحرمونه من شرب الماء، ثم ها هو ابن زياد يأمر بأن تطأ الخيل صدر الحسين(عليه السلام) وظهره، ثم بعد انتهاء الفاجعة يطوفون برؤوس الشهداء من بلد إلى بلد، ويطوفون ببنات رسول الله(صلى الله عليه وآله) سبايا.

فان النبع الحسيني يعطي آخر ما عنده، في حياة، فخطبهم في يوم الفاجعة عدة خطب فقال: «الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال متصرفا بأهلها حالا بعد حال فالمغرور من غرته والشقي من فتنته فلا تغرنكم هذه الحياة الدنيا فإنها تقطع رجاء من ركن إليها وتخيب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمر قد أسخطتم الله فيه عليكم، فأعرض بوجهه الكريم عنكم وأحل بكم نقمة وجنبكم رحمة، فنعم الرب ربنا وبئس العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمد ثم إنكم زحفتم إل ذرية تريدون قتلها، لقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر الله العظيم، فتبا لكم وما تريدون، إنا لله وإنا إليه راجعون، هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبعدا للقوم الظالمين»(٢).

كان الحسين عليه السلام يحاول تحرير هذه العقول من ذل العبودية لغير الله، ولكن هيهات ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٣).

(١) بحار الأنوا: ج٤٤، ص٢١٥. (٢) بحار الأنوار: ج٤٥، ص٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٨٦.

السلام على الحسين وعلى علي بن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين



إمامة الحق وإمامة الباطل

ارسل ابن زياد رسالة إلى الحر بن يزيد مع يزيد بن زياد الكندي يأمره "أن يجعجع بالحسين ويقول له: فلا تنزله إلا بالعراء في غير حصن وعلى غير ماء"[1]. فقال له أبو الشعثاء، وكان من أنصار الحسين عليه السلام: ويلك ماذا جئت فيه؟ قال يزيد: أطعت إمامي ووفيت بيعتي. فقال له أبو الشعثاء: عصيت ربك وأطعت إمامك في هلاك نفسك، كسبت العار والنار. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾[2].

انظروا إلى ذلك الفهم العظيم لصاحب الحسين، حقا إنها إمامة في مواجهة إمامة. إمامة الحق في مواجهة إمامة الباطل، وهذا هو المفهوم الحقيقي للتشيّع، موالاة أئمّة الحق، ومعاداة أئمّة الضلال.

أما حزب بني أمية – حزب الشيطان –، فجعلوا من السلطة القاهرة إمامة يفرقون بها بين الحق والباطل، وأسبغوا على الطواغيت من صفات أئمة الحق، واستعانوا بالمتنسكين أدعياء القداسة من وضاع الأحاديث، وفقهاء السوء ما يمكنهم من التمويه على الجمهور ويعينهم على استخدام المصطلح الديني في خدمة دولة الطاغوت، فإذا أحدث هؤلاء من الأحداث ما تعجز أجهزة التسويغ عن القيام بمهمتها نحوه قالوا: "إن هذا اجتهاد" وللأئمة "أن يجتهدوا فإذا أخطأوا فلهم أجر واحد، وإن أصابوا فلهم أجران"[3]، وإن لم ينجح التسويغ في الإقناع قال فقهاء السوء للناس: "عليكم أن تصبروا على السلاطين وظلمهم إلا أن تروا كفرا بواحا"[4].

وهم لم يصرحوا أبدا بحقيقة هذا الكفر البواح.

إن هؤلاء المتنسكين لم يروا بأسا، ولا فسقا، ولا كفرا بواحا في أن يلي أمر الأمة فرعون مثل معاوية أو يزيد! ولا يرون واجبا عليهم نصرة أبي الأحرار أبي عبد الله الحسين! وهم لم يروا أي كفر ولا معصية لله في سفك دماء العترة الطاهرة!

هذا إذا عرفنا من هم من هؤلاء؟ وما هو منهجهم؟ وما هي أسماؤهم؟

لقد رأينا العترة الطاهرة ولم نر غيرها، رأينا أشباح رجال يرضون بركعات في بيت الله الحرام أو بعض كلمات يزيلون بها العتب.

فها هو ابن كثير يروي عن ابن عمر، في البداية والنهاية، أن رجلا سأله عن دم البعوض يعيب الثوب فقال: "أنظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن النبي ﷺ، وسمعت النبي ﷺ يقول: «هما ريحانتاي من الدنيا»"[5].

إقامة الحجة وبيان الحقيقة

ثم جاء صباح عاشوراء، ووقف الحسين عليه السلام يدعو ربه: «اللهم أنت ثقتي في كل كرب ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو أنزلته بك وشكوته إليك رغبة مني إليك عمن سواك ففرجته وكشفته فأنت ولي كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل رغبة»[6].

(١) تاريخ الأمم والملوك: ج٤، ص٣١٣. (٢) سورة القصص/ ٤١.
(٣) ينظر: صحيح البخاري: ٧٣٥٢. (٤) ينظر: سنن النسائي: ٤١٦٢.
(٥) صحيح البخاري: ج٧، ص٩٨، ٥٩٩٤. (٦) تاريخ الأمم والملوك: ج٤، ص ٣٢١.

وجاء في الخبر: "ثم إن الحسين أضرم نارا وراء البيوت لئلا يأتيه أعداء الله من الخلف، فجاءه شمر بن ذي الجوشن (لعنه الله) وقال: يا حسين استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة؟ فقال الحسين عليه السلام: «من هذا؟ كأنه شمر بن ذي الجوشن»؟ فقالوا: نعم أصلحك الله، هو.. هو. فقال عليه السلام: «يا ابن راعية المعزى أنت أولى بها صليا».

فقال مسلم بن عوسجة: يا ابن رسول الله جعلت فداك ألا أرميه بسهم. فإنه قد أمكنني وليس يسقط سهم، فالفاسق من أعظم الجبارين. فقال له الحسين عليه السلام: «لا ترمه فإني أكره أن أبدأهم»"[1].

سلام الله عليك يا أبا عبد الله، ها أنت، وأنت في قمّة المواجهة مع أعداء الله من بني أمية محافظا على موقف فقهي، وأخلاقي، وعقائدي راسخ.

سلام الله عليك يا من أنت من نور أبيك وأمك، ومن نور رسول الله صل الله عليه وآله. فالإمام علي عليه السلام لم يبدأ أعداءه، أعداء الله يوما بقتال لا أصحاب الجمل، ولا الخوارج. ولا بني أمية يوم صفين، فالقوم أدعياء إسلام دخلوا هذا الدين من بوابة النبوة، ولسنا بصدد تكفيرهم ولا استباحة دمائهم ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[3].

هذا هو المبدأ الراسخ في العلاقة بين أبناء الأمة المنتمين إليها حتى ولو كان ذلك بمجرد الاسم والادعاء. وإن فتح باب التكفير وقتل المسلمين، حتى الأدعياء منهم، فإن ذلك يعني فتح باب فتنة لا يغلق.

يقول ابن جرير الطبري، وهو يتحدث عن يوم عاشورا، ضمن حديثه عن أحداث سنة (٦١ هـ) ما نصه: "فلما دنا منه القوم عاد براحلته فركبها ثم نادى بأعلى صوته بصوت عال يسمع جل الناس: «أيها الناس، اسمعوا قولي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما هو حق لكم عليّ، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم. فإن قبلتم عذري وصدقتم قولي وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[4]، ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾[5]».

قال: فلما سمع أخواته كلامه هذا صحن وبكين وبكى بناته فارتفعت أصواتهن فأرسل إليهن أخاه العباس بن علي وعليا ابنه وقال لهما: «أسكتاهن فلعمري ليكثرن بكاؤهن»"[6].

فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه وذكر الله بما هو أهله وصلى على محمد صلى الله عليه وعلى ملائكته وأنبيائه فذكر من ذلك ما الله أعلم وما لا يحصى ذكره.

(فقال الراوي): فوالله ما سمعت متكلما قط قبله ولا بعده أبلغ في منطق منه.

ثم قال عليه السلام: «أما بعد فانسبوني فانظروا من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها فانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟

(١) مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف: ص١١٦. (٢) سورة البقرة/ ١٩٤.
(٣) سورة البقرة/ ١٩٣. (٤) سورة يونس/ ٧١.
(٥) سورة الأعراف/ ١٩٦. (٦) تاريخ الرسل والملوك: ج٥، ص٤٢٤.

ألست ابن بنت نبيكم صلى الله عليه وسلم وابن وصيه، وابن عمه، وأول المؤمنين بالله والمتصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه؟ أوليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟ أوليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمي؟ أولم يبلغكم قول لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ فإن صدقتموني بما أقول، وهو الحق، والله ما تعمدت كذبا مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله ويضر به من اختلقه، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري أو أبا سعيد الخدري أو سهل بن سعد الساعدي أو زيد بن أرقم أو أنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لي ولأخي، أفما هذا حاجز لكم عن سفك دمي»؟!

فقال له شمر بن ذي الجوشن (لعنه الله): هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله إني لأراك تعبد الله على سبعين حرفا، وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول قد طبع الله على قلبك.

ثم قال لهم الحسين عليه السلام: «فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكون أثرا ما أني ابن بنت نبيكم فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم، أنا ابن بنت نبيكم خاصة، أخبروني، أتطلبوني بقتيل منكم قتلته أو مال لكم استهلكته أو بقصاص من جراحة»؟

قال: فأخذوا لا يكلمونه، قال: فنادى عليه السلام: «يا شبث بن ربعي ويا حجار بن أبجر ويا قيس بن الأشعث ويا يزيد بن الحارث ألم تكتبوا إلي أن قد أينعت الثمار واخضر الجناب وطمت الجمام وإنما تقدم على جند لك مجند فاقبل».

قالوا له: لم نفعل. فقال عليه السلام: «سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم»، ثم قال عليه السلام: «أيها الناس إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض».

فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل على حكم بني عمك. فإنهم لن يروك إلا ما تحب ولن يصل إليك منهم مكروه. فقال له الحسين عليه السلام: «أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أعطيهم بيدي إعطاء الذليل ولا أقر إقرار العبيد، عباد الله إني عذت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب»[1].

محاولة استنهاض الأمة

كانت هذه بلاغات أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وهي واضحة في إقامة الحجة على هؤلاء الحاضرين، ومن ثم إلى أسماع الأمة الإسلامية إلى قيام الساعة.

هذا البلاغ كان لا بد منه ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، ولا يقول قائلهم يوم الهول إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين: والله ما علمنا حقيقة الضحية ولو علمنا ما فعلنا، أو علمنا ولكنا لم نكن نعرف خصائصه ومزاياه لأن بني أمية موهوا علينا.

(١) مقتل الحسين عليه السلام، أبو مخنف: ص١١٨.